

الإيمان بالقدر □ يقيُنْ يملأ القلب سكينة ويبعث الإنسان إلى العمل



الاثنين 20 يوليو 2026 05:00 م

الإيمان بالقدر ركن عظيم من أركان الإيمان، تستقيم به عقيدة المسلم، ويطمئن به قلبه، ويعرف من خلاله أن هذا الكون لا يسير عبثاً، بل يعلم الله ومشيئته وحكمته □ فإذا نزل البلاء لم يجزع، وإذا جاءه الخير لم يفتّر، وإذا تعثرت خطواته لم يستسلم؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه أرحم به من نفسه، وأن ما خفيت حكمته اليوم قد يكشف الله خيره في الغد □

وليس الإيمان بالقدر دعوة إلى التواكل أو ترك العمل، بل هو قوة تدفع المسلم إلى بذل الأسباب ثم تفويض النتائج إلى الله □ فالمؤمن يعمل ويجتهد ويخطط، لكنه لا يعبد الأسباب ولا يعلّق قلبه بها، وإنما يتوكل على رب الأسباب، مستحضراً قول الله تعالى: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: 51).

عودة إلى صفاء القرآن وهدى النبوة

لم يكن القدر في عصر الصحابة رضوان الله عليهم بائياً للتعقيد أو الجدل؛ فقد فهموه إيماناً حياً يجمع بين صدق التوكل وحسن العمل □ لكن دخول الفلسفات والمناهج الكلامية أدّى إلى ظهور اتجاهين متناقضين؛ أحدهما بالغ في إثبات اختيار الإنسان حتى أخرج أفعاله عن عموم مشيئة الله وخلقه، والآخر سلب الإنسان اختياره وجعله مجبوراً على كل أفعاله، حتى كاد يلغي معنى التكليف والحساب □

أما المنهج القرآني، فيثبت مشيئة الله النافذة، ويؤكد في الوقت نفسه مسؤولية الإنسان عن اختياراته وأعماله □ فالعقل وسيلة للفهم والاستدلال، لكنه لا يستطيع الإحاطة بحقائق الغيب وكيفيات القدر، وقد قال الله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء: 36).

وقد انتهى عدد من كبار علماء الكلام، بعد رحلة طويلة في المباحث العقلية، إلى أن طريق القرآن هو الأسلم والأقرب إلى اليقين □ فقال الإمام أبو المعالي الجويني في آخر حياته: «لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلمهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أُمي».

وقال الإمام الفخر الرازي: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: 5)، (إِلَيْهِ يَصْغَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) (فاطر: 10)، واقرأ في النفي (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (طه: 110)، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

الإيمان بالقدر من تمام التوحيد

الإيمان بالقدر ليس مسألة منفصلة عن التوحيد، بل هو ثمرة مباشرة للإيمان بأسماء الله وصفاته □ فمن آمن بأن الله عليم، آمن بأن علمه أحاط بكل شيء □ ومن آمن بأنه قدير، علم أن قدرته نافذة في ملكه □ ومن آمن بأنه حكيم، أيقن أن أقداره لا تخلو من حكمة، وإن عجز الإنسان عن إدراكها □

وقد قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن لم يؤمن بالقدر فقد قدح في توحيده». فالإيمان بأن الله يعلم الأشياء ويديرها ويجريها بحكمة من كمال الإيمان بربوبيته سبحانه □

ويقوم الإيمان بالقدر على أربع مراتب عظيمة:

أولها الإيمان بعلم الله المحيط، فهو يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلِمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ) (الأنعام: 59).

وثانيها الإيمان بأن الله كتب مقادير الخلائق، فقد قال النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» (رواه مسلم).

وثالثها الإيمان بمشيئة الله النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في ملكه شيء خارج عن إرادته وعلمه ﷻ

ورابعها الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وأن العباد يفعلون أعمالهم بإرادة واختيار حقيقيين، لكن إرادتهم وقدرتهم مخلوقتان لله ولا تخرجان عن مشيئته ﷻ

وعندما يستقر هذا المعنى في القلب، ينتقل المسلم من الجدل الذي لا ينفعه: هل أنا حر أم مجبر؟ إلى السؤال الذي يصلح دنياه وآخرته: كيف أحقق عبوديتي لله، وأؤدي أمانة التكليف، وأسلم لحكمة ربي؟

يوسف عليه السلام ﷺ حين تصنع المحنة طريق المنحة

تعلمنا قصص القرآن أن القدر لا يُقرأ من لحظة واحدة، وأن المشهد المؤلم قد يكون بدايةً لخير عظيم ﷻ قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) (يوسف: 111).

ألقي يوسف عليه السلام في غيابة الجب، وبيع عبدًا، ودخل السجن مظلومًا، ثم أخرجه الله من ضيق السجن إلى سعة التمكين، وجعله عزيزًا على خزائن مصر ﷻ كانت المحن في ظاهرها تتتابع عليه، لكن عناية الله كانت تنقله بها إلى المكان الذي أراده له ﷻ

وعندما جمع الله يوسف بأهله، أعلن قاعدة النجاة التي لا تتبدل: (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف: 90).

ولم يكن توكل يوسف عليه السلام استسلامًا؛ فقد أخذ بالأسباب، وطلب ممن ظن أنه ناج من صاحبيه في السجن أن يذكره عند الملك، وأحسن تأويل الرؤى، ثم قدّم خطة عملية لإنقاذ البلاد من المجاعة ﷻ وهكذا يكون المؤمن: قلبه مع الله، وجوارحه عاملة فيما يرضيه ﷻ

موسى عليه السلام ﷺ قد تأتي النجاة من الطريق الذي نخشاه

وُلد موسى عليه السلام في وقت كان فرعون يقتل فيه أبناء بني إسرائيل، لكن الله جعل نجاته في النهر، ثم ربّاه في بيت الطاغية نفسه ﷻ وأوحى الله إلى أمه: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا خُفِّتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِبْرَافِيمًا وَجَعَلْنَاهُ مِنَّا مُرْسِلِينَ) (القصص: 7).

جاء وعد الله بالرد والحفظ مع الأمر بفعل السبب، رغم أن السبب بدا مخيفًا في ظاهره ﷻ فقد كان إلقاءه في اليم مدخلًا إلى النجاة، وكان بيت فرعون نفسه موضع الحماية ﷻ وهذا يعلم المؤمن ألا يحكم على أقدار الله من ظاهرها، فرب طريق خافه الإنسان كان فيه نجاته، ورب باب أغلق أمامه صرفه الله به عن شر لا يعلمه ﷻ

مريم عليها السلام ﷺ قدرة الله لا تحدها الأسباب

تكشف قصة مريم عليها السلام أن قدرة الله فوق كل مألوف، وأن الأسباب لا تعمل بذاتها، وإنما تعمل بإذن خالقها ﷻ فقد شاء الله أن يولد عيسى عليه السلام من غير أب، قال تعالى: (فَإِذَا رَءَتْ رَبًّا آتًى يَكُونُ لِي وَلَدًا وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) (آل عمران: 47).

فإذا أراد الله أمرًا قال له: كن فيكون ﷻ ومن أيقن بذلك لم ييأس من رحمة الله، ولم يحصر الفرج في الأبواب التي يعرفها؛ لأن الله قادر على تغيير الأحوال، وفتح أبواب لم تخطر للإنسان على بال ﷻ

الأخذ بالأسباب عبادة لا تناقض التوكل

من أخطر الأخطاء الاحتجاج بالقدر على الكسل، أو ترك التداعي والسعي والعمل بدعوى أن كل شيء مكتوب ﷻ وهذا فهم فاسد؛ لأن الذي قدّر النتائج هو الذي شرع الأسباب وأمر بها ﷻ

وقد وجّه النبي ﷺ أمته إلى التداعي فقال: «تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، إلا داءً واحدًا: الهرم» (رواه أبو داود والترمذي).

وفي المقابل، لا يجوز للمسلم أن يغتر بالأسباب، فيظن أن الدواء يشفي بذاته، أو أن السلاح يحقق النصر وحده، أو أن المال والعلم والقوة تغنيه عن الله ﷻ فترك الأسباب تواكل، والاعتماد عليها وحدها خلل في التوحيد، أما المنهج الصحيح فهو أن تعمل الجوارح بالأسباب، ويعتمد القلب على الله ﷻ

وقد اختصر النبي ﷺ هذا المنهج في جوابه لصاحب الناقة حين قال: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل؟ فقال ﷺ: «اعقلها وتوكل» (رواه الترمذي).

فالتوكل ليس تركًا للعمل، وإنما هو صدق اعتماد القلب على الله بعد بذل ما يستطيع الإنسان من الأسباب المشروعة

ذو القرنين: الإيمان الذي يبني ويُعمر

يقدم القرآن في قصة ذي القرنين نموذجًا للقائد المؤمن الذي جمع بين توحيد الله، وحسن الإدارة، واستثمار الموارد، وتنظيم الجهود فعندما طلب منه القوم إقامة حاجز يحميهم من يأجوج ومأجوج، لم يكتف بالدعاء أو الأمنيات، بل استعان بالحديد والنحاس وقوة الناس وخبراتهم، وقال: (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (الكهف: 95).

بدأ ذو القرنين بنسبة التمكين إلى الله: (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)، ثم طلب العمل والمعاونة: (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ). وبعد إتمام السد لم يغتر بإنجازه، بل قال: (هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي). فتوحيد الله لم يمنعه من التخطيط والبناء، والنجاح لم يمنعه من رد الفضل إلى صاحبه سبحانه

الهداية والضلال ومسؤولية الإنسان

لا يظلم الله أحدًا، وقد أقام الحجة على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإيداع الفطرة في النفوس، ونشر الآيات الدالة عليه في الأنفس والآفاق قال تعالى: (رُشِدًا مَّبْشُرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّشْدِ) (النساء: 165).

ولهذا لا يصح للإنسان أن يحتج بالقدر على معصيته، فهو لا يعلم ما كُتِبَ له، لكنه يعلم ما أمره الله به وما نهاه عنه، ويشعر في نفسه بأنه يختار بين الطاعة والمعصية

وقد جعل الله القلب ميدانًا للابتلاء، وأعطى الإنسان القدرة على تزكية نفسه أو تدسيثها، فقال سبحانه: (مَنْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَمَنْ ذَلَّاهَا ۖ) (الشمس: 9-10).

فمن صدق في طلب الهداية، وأقبل على القرآن، وأكثر من الدعاء، وجالس الصالحين، وتأمل آيات الله، وعمل بما علم، فتح الله له أبوابًا من النور أما الإعراض والغفلة والغرور والإصرار على المعصية والاستكبار عن الحق، فهي من أعظم أسباب الضلال

البلاء لا ينفي حكمة الله

وجود الألم والمصائب لا يعني غياب الحكمة، فالإنسان محدود النظر، وقد يرى جانبًا واحدًا من الحدث ولا يدرك ما وراءه من الرحمة والتربية والتطهير كما أن كثيرًا من الشرور والفساد يقع بسبب ظلم الإنسان وانحرافه، قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) (الروم: 41).

فالبلاء قد يكون تنبيهًا للغافل، أو تكفيرًا لذنوب المؤمن، أو رفعًا لدرجته، أو حماية له من شر أعظم والمؤمن لا يدعي معرفة الحكمة التفصيلية في كل مصيبة، لكنه يوقن بأن الله لا يقدر شيئًا عبثًا، وأن رحمته وحكمته تحيطان بما خفي عن العباد

الشكر يحفظ النعم والغرور يهدمها

تعلمنا قصة صاحب الجنتين أن النعمة إذا أورثت الغرور والجحود تحولت إلى حجة على صاحبها، وأن بقاء النعم مرتبط بشكر الله واستعمال عطايه فيما يرضيه

وضرب الله مثلًا للأمم التي كفرت بأنعمه فقال: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: 112).

فلا ينبغي للعبد أن ينسب نجاحه إلى ذكائه وقوته وحدهما، بل يشكر المنعم، ويحسن استعمال النعمة، ويتواضع لله، ويرحم عباده

حسن الظن بالله ثمرة اليقين

إذا آمن العبد بحكمة الله ورحمته، أحسن الظن به في الرخاء والشدة، ولم يفسر تأخر الإجابة بأنه حرمان، ولا البلاء بأنه هجر، ولا إغلاق باب بأنه نهاية الطريق

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» (متفق عليه).

وحسن الظن بالله ليس أمنية فارغة مع الإقامة على المعصية، بل هو رجاء يدفع إلى الطاعة والتوبة والعمل، وثقة بأن الله لا يضيع من أقبل عليه، ولا يخذل من صدق في اللجوء إليه

الصبر والرضا والشكر عند نزول البلاء

يتعامل المؤمن مع المصائب على درجات؛ فيصبر فلا يعترض على حكم الله، ثم يرتقي إلى الرضا والثقة بحكمته، وقد يبلغ منزلة الشكر حين يرى في البلاء بابًا لتكفير الذنوب ورفع الدرجات والعودة الصادقة إلى الله

فالإيمان بالقدر يحول الألم إلى طاقة، ويمنع المصائب من تحطيم النفس^١ والمؤمن يستحضر الهدى النبوي الذي يقرر أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^٢ فلا يعيش أسيّرًا لعبارات: لو أنني فعلت كذا، أو لو لم أفعل كذا، وإنما يتعلم من أخطائه، ويصح طريقه، ثم يمضي مستعينًا بالله^٣

نفر من قدر الله إلى قدر الله

عندما أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بانتشار الطاعون في الشام، وعزم على الرجوع، قيل له: أتفر من قدر الله؟ فقال: «نفر من قدر الله إلى قدر الله».

فهذه الكلمة تجمع فقهًا عظيمًا؛ فالاحتراز من المرض قدر، والتدأوي قدر، والسعي في الرزق قدر، وإعداد القوة قدر، والدعاء قدر^٤ والمؤمن لا يهرب من القدر، وإنما ينتقل بين أقدار الله متبعًا شرعه وأخذًا بالأسباب التي أذن بها^٥

الإيمان بالقدر طريق إلى النهضة

لا تنهض الأمم بالأمانى وحدها، ولا يتحقق الإصلاح بمجرد انتظار تبدل الأحوال؛ فقد جعل الله للتغيير سننًا ثابتة، فقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: 11).

فالتغيير يبدأ من إصلاح العقيدة والنفوس، ثم ينتقل إلى العلم والعمل والتنظيم والتخطيط وتحمل المسؤولية^٦ والأمة التي تهجر سنن الله في البناء لا تتقدم بمجرد الدعاء، كما أن الأمة التي تمتلك أدوات القوة المادية وتفقد الإيمان والقيم تعاني فراغًا روحيًا وأخلاقيًا^٧

إن سنن الله لا تحابي أحدًا؛ فمن أخذ بأسباب العلم والنظام والإتقان حصد من ثمارها بقدر أخذه بها، ومن أهملها دفع ثمن ذلك، ولو كان ينتسب إلى الإسلام^٨ ولذلك فإن فقه القدر لا يصنع إنسانًا مستسلمًا، وإنما يصنع مؤمنًا شجاعًا، يعرف أن الرزق مقسوم والأجل مكتوب، فيعمل للحق ولا يخشى إلا الله^٩

عش مطمئنًا واعمل مخلصًا

الإيمان بالقدر تسليم لله فيما لا تدركه العقول، وثقة بحكمته فيما يؤلم النفوس، وأخذ بالأسباب فيما يستطيع الإنسان، وفقه للسنن فيما يرجوه من إصلاح ونهضة^{١٠}

ليس القدر عذرًا لمن قصّر، ولا ستارًا يختبئ خلفه الكسالى، ولا مسكنًا لمن ترك واجبه؛ بل هو سلاح المؤمن الذي يعمل ويجاهد ويصبر، ثم يرضى بما اختاره الله له^{١١} فإذا نجح شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب تاب، وإذا أخفق راجع نفسه وحاول من جديد^{١٢}

فاجعل قلبك معلقًا بالله، وخذ بالأسباب التي شرعها، ولا تيأس إذا تأخر الفرج، ولا تغتر إذا جاءك النجاح^{١٣} واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وردد بيقين: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: 51).